علم النفس والتحوّل المعرفي من الفلسفة إلى العلم

Psychology and Cognitive Transition from Philosophy to Science

خيرة عبد العزيز

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف

k.abdelaziz@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام : 2023/10/12 ؛ تاريخ القبول : 2023/12/30 ؛ تاريخ النشر : 22/02/ 2024

ملخص:

يعدّ علم النفس من العلوم الإنسانية الأساسية قطع أشواطاً هائلة ومراحل متعدّدة قبل أنْ يحقّق استقلاليته عن الفلسفة، بدءا من الفلسفة اليونانية وصولاً إلى الفلسفة الحديثة، حيث طغت التفسيرات الميتافيزيقية الفلسفية على المسائل النفسية، وهذا ما حال دون اعتبارها دراسات علمية، إلاّ أنّ هذه التصورات الفلسفية للنفس شكّلت تراكمية معرفية وإرهاصات مهّدت لنشأة علم النّفس مع منتصف القرن 19م وبداية القرن 20م، من خلال تهيُّئ الشروط الإبستيمولوجية الملائمة، بتحقُّق انفصال علم النفس عن الفلسفة، والتأسيس الفعلي له كمجال معرفي مستقل، له موضوع ومنهج خاص.

وانطلاقاً من ذلك فإنّ البحث في الأسس المعرفية التي ساهمت في نشأة علم النفس تقتضي الوقوف على مرحلتين بداية من المرحلة الفلسفية وتصوراتها حول النفس، وصولاً إلى المرحلة العلمية بإبراز التطورات الهائلة في مجال العلوم الطبيعية والرياضية وانعكاس ذلك على نشأة العلوم الإنسانية عامّة وعلم النفس بشكل خاصّ، وتكمن أهمية هذا البحث في محاولة تبيان مكانة العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال علم النفس ضمن المجال المعرفي العام، وعلاقة ذلك بالتنمية الاجتماعية والنفسية للإنسان.

الكلمات المفتاحية: علم النفس، المنهج، العلوم الإنسانية، الفلسفة، العلوم الطبيعية، الأسس المعرفية.

Abstract:

Psychology, as one of the fundamental humanities, underwent significant progress and multiple stages before achieving independence from philosophy. Its roots trace back from ancient Greek philosophy to modern philosophy, where metaphysical philosophical interpretations dominated psychological matters, preventing their consideration as scientific studies. However, these philosophical conceptions of the mind accumulated as cognitive foundations that paved the way for the emergence of psychology around the mid-19th century and the beginning of the 20th century. This was achieved by creating suitable epistemological conditions, marking the separation of psychology from philosophy and establishing it as an actual independent field of knowledge with its unique subject matter and methodology.

Consequently, delving into the cognitive foundations contributing to the emergence of psychology necessitates exploring two stages: starting from the philosophical stage with its perceptions of the mind and progressing toward the scientific stage by highlighting the immense developments in natural and mathematical sciences and their impact on the birth of humanities and specifically psychology. The significance of this research lies in attempting to elucidate the position of humanities and social sciences through psychology within the broader intellectual domain, and its relation to human psychological and social development.

Keywords: Psychology, Methodology, Humanities, Philosophy, Natural Sciences, Cognitive Foundations.

مقدمة:

لقد قطعت العلوم الإنسانية والاجتماعية أشواطا طويلة باتجاه تأسيس مجالها المعرفي الخاص بها في العصر الحديث، وهذا مردّه لعدم توفر الشروط الإبستمولوجية قبل هذه المرحلة، حيث إنّ الإنسان الذي يُنتج المعرفة تأخر البحث فيه وذلك لاعتباره موضوعاً معقّدا من الصعب الخوض فيه كموضوع مستقل، إذْ كان يُتناول ضمن موضوعات الفلسفة بشكل عام، وهذا ما يفسّر تأخُّر قيام دراسات إنسانية علمية مقارنة بالعلوم الأخرى.

وانطلاقاً من ذلك سنتعرض لأحد أهم العلوم الإنسانية والاجتماعية وهو علم النفس كعلم حديث النشأة، لكن الخوض في مسألة النفس قديم قدم التفكير الفلسفي، إذ تناول الفلاسفة هذا الموضوع ضمن نظرية المعرفة كما هو الحال في الفلسفة اليونانية والإسلامية والمسيحية وحتى بدايات العصر الحديث بالتساؤل حول ماهية النفس والروح وطبيعتها وقيمتها وخلودها وعلاقتها بالجسد، كما هو الحال في التأصيل الأول لعلم النفس مع " أرسطو"(384ق.م- 322ق.م)، وتطورت هذه التصورات مع المسلمين خاصة مع " ابن سينا"(980م-1037م)، ومع "توما الإكويني"(1225م- 1274م) في الفلسفة الوسيطية، إذْ شهد علم النفس تحولات معرفية عدّة من دراسة النفس إلى دراسة الروح، ممّا أضفى على مثل هذه التصورات الفلسفية حول النفس تفسيرا اتخذ نوعا ما طابعاً ميتافزيقياً نظريا.

وصولا إلى العصر الحديث إذْ أصبح علم النفس يعادل علم العقل وعلم الشعور مع ديكارت، إذْ استمرّ هذا الاعتقاد إلى غاية نهاية القرن 19م بطغيان التفسير العقلي التأمّلي، لكن هذه المرحلة الفلسفية بمساراتها المعرفية شكلت أرضية مهدت لعلم النفس من تحقيق إستقلاليته عن الفلسفة بعد قطائع إبستمولوجية عدّة بالدخول للمرحلة العلمية، وذلك بالتوجه إلى التجريب تأثّراً بنموذج العلوم الطبيعية وما حققته من نتائج مبهرة والاستفادة من الوضع العلمي العام لتأسيس مجال معرفي مستقل خاص بدراسة الظواهر النفسية، وفي هذا الإطار يمكننا إثارة بعض التساؤولات: ما هي مراحل نشأة علم النفس؟ وكيف استطاعت بحوث النفس التحوّل من مجرد درسات فلسفية تأملية إلى بحوث علمية وضعية؟ وهل استطاع علم النفس تجاوز عوائقه الإبستمولوجية ليصبح علما قائماً بذاته؟

1 .علم النفس: المفهوم والطبيعة

إنّ محاولة ضبط مفهوم دقيق لعلم النفس ليس بالأمر الهيّن، وذلك لطبيعة الموضوعات النفسية المعقدة من جهة وطبيعة هذا العلم في حد ذاته من حيث نشأته والمراحل العديدة التي مرّ بها أضفت كل منها على المفهوم خصوصية. وفي نطاق الفلسفة إهتمّ علماء النفس والفلاسفة " بدراسة العلاقات الموجودة

بين الجسد والروح، إذا كان ينطلق من الثنائية الفلسفية التي تؤكد وجود روح مستقلة عن الجسد"[1]، وهي بذلك المحرّك له وهذا ما تناوله "ديكارت" خاصة بداية القرن 17م، وذلك بالتركيز على مطابقة النفس بالوعي وفقا للدراسة الاستبطانية.

وعندما تمكّن علم النفس من الانفصال عن الفلسفة خلال القرن التاسع عشر بعد تحقيقه ذلك التقارب خاصة مع العلوم الطبيعية " لم يطرأ في هذه المرحلة تغيير أساسي على تعريف علم النفس، غير أنه حلّ موضوع الوعي أو الفكر أو النفس محل الروح"[2].

إنّ التحوُّل الفعلي في تاريخ مفهوم علم النفس تبلور خاصة في النصف الأول من القرن العشرين كونُه تحوّل من علم للشعور إلى علم للسلوك، وهذا ما دعت إليه المدرسة السلوكية التي يتزعمها "واطسن" حيث أكدت على أنّه لا يمكن إضفاء صفة العلمية على الدراسات السيكولوجية إلا إذا تجاوزت الاستبطان وجعلت من السلوك كأساس لها كونه قابل للملاحظة المباشرة مماثلة بالدراسة التجريبية في مجال العلوم الطبيعية، كما يمكننا أنْ ننبّه إلى مصطلح معاصر يكثُر تداوله وهو السيكولوجيا التي في حالات معينة "تنزع إلى التعارض مع الفلسفة، فقد كان هدف حركة السيكولوجيا المستقلة تشكيل السيكولوجيا في مرحلة العلم الوضعي"3، وهذا ما يتناغم والتوجه التجريبي في دراسة الظواهر النفسية بتجاوز التفسير الميتافزيقي والتأملي لموضوعاتها اقتداءاً بنموذج العلوم الطبيعية، بهدف تحصيل نتائج موضوعية من خلال تكييف مناهج البحث حسب طبيعة الموضوع النفسي.

وهذا ما فتح الباب أمام ابتكار مناهج جديدة للدراسة في علم النفس تقوم على أساس انتقاد المناهج السابقة، تهدف كلها إلى غاية واحدة وهي التوصل إلى القوانين التي تتحكم في حدوث الظواهر النفسية وإن تعددت مسالك ذلك، وهذا ما نتج عنه علوم للنفس مثال ذلك علم النفس التجريبي، علم النفس الاجتماعي، علم النفس المرضي، علم نفس الحيوان، علم نفس الطفل...

إنّ هذا التعدّد في التخصصات يجعل من الصعوبة تحديد مفهوما واحدًا لها، وهذا طبيعي بالنظر إلى تعدّد جوانب الإنسان وتداخلها نفسيا أو اجتماعيا أو تاريخيا، فلا يمكن أن نتحدث عن جانب واحد بمعزل عن الجوانب الأخرى، لأنّه لا يمكن فهم سلوك ما إلاّ من خلال تفاعل هذه الجوانب فيما بينها، ولكن لابد من احترام خصوصية الموضوع وما يترتب على ذلك من مناهج تتناغم مع مفاهيم العلم المعاصر.

[1] الوافي عبد الرحمن، (2003)، المختصر في مبادئ علم النفس، د- ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 16.
[2] المرجع نفسه، ص 17.
[3] أندري لالاند، (2001)، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A-G، ط2، منشورات عويدات، بيروت، ص 1073.

وانطلاقا من ذلك يمكننا أن نتوصل إلى تعريف نحاول من خلاله ولو نسبيا أن يكون ملمّاً بجوانب الإنسان المختلفة من حيث إنّ " موضوع علم النفس قائم في دراسة الكائن الواعي داخل موقف، يعني أن علم النفس يدرس الكائن من حيث كونه يفكر ويشعر، إنه يدرس السلوك العضوي ومعطيات الوعي معا دون فصل بين هذه وذاك، ففي السلوك نرى ونبلغ الوعي، وفي الحركة نقرأ المعنى لا وراءها ولا بعدها نقرأه فورا، نفهمه بالتجربة المباشرة والمعاشة"[4]

وعلى إثر ذلك فعلم النفس يدرس" الانسان العياني، الموجود في موقف، القائم في عالم مادي هو محيطه وفي وسط اجتماعي، إنه علم يدرس الكائن التاريخي الذي تكونه وتؤثر فيه تجاربه الماضية والذي يتطور وينمو ويتأثر ويؤثر في وسطه"[5]، كما أنّه علم يدرس الظواهر السيكولوجية أو وقائع الأنا والقوانين التي تحكمها، ويخضع للملاحظة الداخلية والخارجية ويسمى علم النفس التجريبي، أما علم النفس العقلي فهو أسلوب خاص في فهم المشاكل السيكولوجية وحلّها"[6]

إنّ علم النفس كعلم إنساني قطع أشواطا هائلة ومراحل متعددة ليصل إلى لحظة تحقيق انفصاله عن الفلسفة ومن ثمة التأسيس الفعلي له كمجال معرفي خاص، ومن هذا المنظور فلابد من الكشف عن الأسس التاريخية والمعرفية التي ساهمت في بلورته كعلم.

1.2. نشأة علم النفس: مرّ علم النفس بمرحلتين مهمتين لكلّ منهما سياق تاريخي ومعرفي خاص كان له الأثر البالغ في بلورة الكثير من التصورات والنظريات النفسية وحتى مناهج البحث، ويمكننا أن نميز ذلك إلى:

1.2.3 علم النفس والفلسفة:

- **من الفلسفة اليونانية حتى العصر الحديث:**

إنّ الخوض في قضايا النفس يعدّ من أقدم المسائل الفلسفية التي تناولتها الفلسفات حتى ما قبل الفلسفة اليونانية والتي تمحور اهتمامها على فهم السلوك الإنساني وتبيان قيمته وعلاقته بالوجود، بالرغم من طغيان التفسيرات اللاهوتية أو الميتافيزيقية عليها، ولعل مقولة " سقراط " (470-399 ق.م) "اعرف نفسك بنفسك" كانت دعوة إلى الغوص في أغوار النفس والكشف عما يجول بداخلها من أحوال مختلفة تؤثر في الإنسان وتحركه "معلنا أن الجوهر الأول أي النفس العاقلة أو الروح، هو جزء من العقل الكلي أو الروح الإلهية"»[7].

[4] زيعور علي، (1981) مذاهب علم النفس، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص 369.

[5] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[6] إبراهيم مدكور، (1983) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ص 167.

[7] عامود بدر الدين، (2001)، علم النفس في القرن العشرين، ج1، د ـ ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 28.

وفي هذا إشارة إلى خلودها وبقائها في مقابل فناء الجسد، وهذا التصور قد تبناه " أفلاطون " (427ق.م-347 ق.م) الذي أسّس لنظريته في النفس باعتقاده أنّ " النشاط النفسي الدائم هو دليل خلود الروح، فالروح لا تعرف السكون، ولا تكف عن الحركة لأنها تستمد هذه الحركة من ذاتها وهي فوق ذلك، منزهة عن الموت باعتبارها مبدأ كل حركة، ولما كان هذا شأنها فهي تشبه المثل المطلقة الخالدة خلافا للجسد الذي ينتمي إلى العالم المحسوس ويتركب من العناصر الفانية"[8]

وهنا تظهر نظرة " أفلاطون" الميتافيزيقية إلى النفس من خلال اعتماد مبدأ تقسيمها إلى ثلاث قوى: القوة العاقلة والقوة الغضبية والقوة الشهوانية حيث تتباين أشكالها ودرجاتها عند الناس بحسب طبقة الفرد وقدراته، ونفس هذا التصور أسقطه على السياسة اعتمادا على قاعدة خضوع الأدنى للأعلى لتحقيق التوازن النفسي وكذا العدالة، ويبقى المعقول هو جوهر تصوره حول النفس.

وكذلك "أرسطو" الذي تجاوز تصور "أفلاطون" حول تقسيم النفس من منظور رؤية توحد بين البدن والروح والتفريق بينهما يكون على مستوى تجريدي، فالنفس عنده تتمظهر في قدرات عديدة كالقدرة على التغذية، والقدرة على الحس والقدرة على الحركة، والقدرة على الفهم التي تجتمع كلها عند الإنسان وتميزه عن باقي الكائنات الأخرى لأنه يتمتع بالحس المشترك والذاكرة والتخيل حيث يرى "أرسطو" أن "وظيفة هذه القوى هي تمكين الإنسان من التفاعل مع محيطه عن طريق ما تزوده به من معارف حسية حول أشياء هذا المحيط ومظاهره"[9]

يُجمع العديد من العلماء حتى المعاصرين منهم أن دراسة النفس مع " أرسطو" حققت تطورا ملحوظا من خلال اعتقاده أن " الروح أو النفس ما هي إلا مجموع الوظائف الحيوية لدى الكائن الحي أي وظائف الجسم، وبها يتميز عن الجماد ومن دونها لا يكون الجسم أكثر من جثة، وعلى ذلك تكون الحالات النفسية نتيجة عمليات جسمية"[10]، وهذا ما يبيّن أهمية النفس كونها هي محرك الجسم وجوهره الخالد و وبدونها يؤول إلى الفناء، بالرغم من المجهودات المبذولة من طرف فلاسفة اليونان في محاولة إعطاء تفسير للجانب النفسي في الإنسان، إلا أنه تبقى كل هذه الدراسات مصبوغة بصبغة لاهوتية وميتافيزيقية تحتضنها الفلسفة أكثر من العلم بالمفهوم المعاصر.

وبالتالي فإنّ تصور الفلسفة اليونانية حول النفس كان له الأثر الكبير على الفلسفات التي جاءت بعد ذلك من خلال نموذج "أرسطو" سواء تعلق ذلك بالفلسفة الإسلامية أو بفلسفة القرون الوسطى، وعلى سبيل المثال لا الحصر نأخذ" ابن سينا" (920م- 1037م) الذي استطاع في مجال بحثه في الدراسات النفسية الجمع بين منهجي الاستنباط العقلي والاستقراء التجريبي حيث "درس أحوال النفس الإنسانية دراسة عميقة جمعت

[8] عامود بدر الدين، (2001)، علم النفس في القرن العشرين ، مرجع سابق، ص 29.

[9] المرجع نفسه، ص32.

[10] الوافي عبد الرحمان، المختصر في مبادئ علم النفس، مرجع سابق، ص 7-8.

بين النواحي الطبية والفيزيولوجية والنفسية والفلسفية في وزن واحد من الاتساق"[11]، ومع هذا التميُّز في الدراسة لم تستطيع بحوثه النفسية تجاوز الكثير من العوائق الإبستمولوجية، انطلاقاً من كونها بقيت كجزء من نظرية المعرفة، والتي لم تتخلّص بشكل كلّي من الطابع التأملي الفلسفي.

وانطلاقا من ذلك فقد بقي علماء النفس والفلاسفة "يجادلون ويناقشون طبيعة النفس وخلودها ومصير الإنسان حتى أعياهم الأمر فانقسموا إلى قسمين، اختصّ الأول وهم رجال الدين بدراسة الظواهر الروحانية، واختص الثاني وهم الفلاسفة وعلماء النفس بدراسة الظواهر العقلية، فكانت هذه أول بادرة لانفصال علم النفس عن علم الإلهيات"[12]، إذ تحوّل هذا العلم من علم الروح إلى علم العقل، خاصة مع عصر النهضة الذي تميز بإعادة مراجعة المفاهيم السابقة للمعرفة والعلم.

وفي هذا النطاق بدأت الاعتراضات والانتقادات على التناول الأنطولوجي التقليدي للقضايا النفسية من قبل العديد من فلاسفة العقلانية وفلاسفة التجريبية، إذ نجد " ديكارت" Descartes(1596 - 1650) في القرن السابع عشر قد أعطى لموضوع النفس أهمية كبرى ضمن دراساته والتي كانت بمثابة التمهيد لبعض قضايا علم النفس لاحقا " لقد بحث في طبيعة الفهم كما أنه حاول التمييز بصدد الأفكار بين الأفكار الفطرية التي تؤهلنا طبيعة فكرنا البشري إلى إدراكها وبين الأفكار التي تأتينا عن طريق الاتصال الحسي وبين الأفكار المصطنعة التي تأتينا عن طريق الخيال وهي على صلة بالأفكار الحسية"[13]

يعدُّ الإنسان من منظوره ثنائية روح وجسد إذ يرى " أنهما شيئان مختلفان متمايزان كل التمايز وليس بينهما ارتباط طبيعي، فالخاصية الجوهرية للجسم هي الامتداد أي شغل حيز من الفراغ في حين خاصة العقل عند الإنسان هي التفكير والشعور"[14].

ومن هذا المنطلق أصبحت الدراسات في مستوى النفس ترتكز على دراسة الشعور إلى حد التطابق بينهما، فما هو نفسي شعوري وما هو شعوري نفسي فأصبح علم النفس هو علم الشعور، لذا ارتكزت الدراسات في مجال النفس على الدراسة الاستبطانية التي تقوم بوصف وتحليل الخبرات الشعورية من انفعال وتذكر وتفكير " كما يحلل الكيميائي المواد إلى عناصرها، وكان المنهج المتبع في البحث هو الملاحظة الداخلية أو التأمل الباطني، ويتلخص في ملاحظة الفرد لما يجري في شعوره من خبرات حسية أو فكرية أو وجدانية مختلفة

[11] ملأ عثمان حسين، (1982)، الدراسات النفسية عند المسلمين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 182.

[12] الوافي عبد الرحمن، المختصر في مبادئ علم النفس، مرجع سابق، ص 8.

[13] وقيدي محمد، (1998) العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، ط2، مطبعة فضالة، المغرب، ص: 89.

[14] الوافي عبد الرحمن، المختصر في مبادئ علم النفس، مرجع سابق، ص8-9.

قصد وصف هذه الخبرات وتحليلها أو تأويلها أحيانا كأن يلاحظ الفرد ما يجري في شعوره أثناء عملية التفكير أو أثناء انفعال الحزن أو الغضب"[15]

إلا أنّ مثل هذه الدراسات لاقت انتقادات كثيرة لاهتمامها بالجانب الداخلي للحياة النفسية لأن التأمل الباطني يبقى ذو صبغة فردية فلا ينبغي تعميم ما هو فردي من حيث أن الملاحظة وموضوعها هو الفرد نفسه، فالطريقة التي انتهجها "ديكارت" ومن جاء بعده لم ترق إلى مستوى الدراسة الموضوعية و ذلك لهيمنة الطابع الميتافيزيقي عليها، مما أثار مشكلة المعرفة في محاولة للكشف عن طبيعة الفكر البشري وقدرته على المعرفة والبحث عن أدوات بلوغ المعرفة الموضوعية، وهذا ما ساهم بشكل واضح في التمهيد لنشأة علم النفس خاصة وعلوم الإنسان عامة.

- **علم النفس وإرهاصات النشأة:**

نظرا لهيمنة التأويل الميتافيزيقي لكثير من قضايا المعرفة التي تناولتها الاتجاهات العقلانية ظهرت في مقابل ذلك اتجاهات تجريبية انجليزية في القرن الثامن عشر تجاوزت بصورة مطلقة الطروحات الأنطولوجية لمشكلة المعرفة، بمعارضة وجود أفكار فطرية في الفكر، هذا ما اعتقده "جون لوك" John Locke (1632م-1704م) "بأن الكائن البشري يولد وعقله صفحة بيضاء تنقش عليها الخبرات الحسية ما تريد، فليس قبل الخبرة في العقل شيء، هذه الخبرة تأتي عن طريق الحواس"[16]، معنى ذلك أن التجربة الحسية هي مصدر المعرفة الإنسانية، حيث اتجهت مشكلة المعرفة اتجاها تجريبيا.

ولقد استمر هذا الطرح وتطور أكثر فيما بعد مع فلاسفة التجريبية أمثال "دافيد هيوم" David Hume (1711م-1776م) وأيضا "مع كوندياك" Condillac (1714م- 1780م) "الذي يؤكد أنّ الإحساس هو الواقع الوحيد وهو المصدر لكل معارفنا"[17]، إلاّ أنه لا يمكن القول في هذه المرحلة بأنّه تمّ التوصل إلى دراسة الظواهر النفسية دراسة موضوعية، وذلك للتركيز على جانب معين من الإحساس بربطه دائما بمشكلة المعرفة، تعدّ الفلسفة التجريبية من خلال تناولها لمشكلة المعرفة ونقد الفكر البشري مرحلة تمهيدية وكأساس من الأسس الإبستمولوجية التي أسهمت في نشأة العلوم الإنسانية بصورة عامة وعلم النفس بصورة خاصة.

وبما أنّ العلوم الإنسانية لم تنشأ بمعزل عن المنظومة المعرفية العامة، وبالأخص تطور العلوم التجريبية كالعلوم البيولوجية والفيزيولوجية التي كانت أحد العوامل المساعدة في التمهيد لظهور علم النفس "مثل نفاذ الآلة إلى جسم الإنسان من أجل اكتشاف قوانين حركته وعلاقات أعضائه، مقدمة أساسية لعلوم

[15] المرجع نفسه، ص 9-10.

[16] المرجع نفسه، ص10.

[17] وقيدي محمد، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، مرجع سابق، ص 91.

الإنسان بصفة عامة، ولكننا يمكن أن نؤكد الدور الفعال لهذه الخطوة العلمية بالنسبة لأقرب العلوم إلى دراسة الإنسان من حيث هو جسم، وهو العلم المتعلق بالحياة النفسية وبالظواهر العقلية"[18]

وهذا ما دفع العلماء خاصة في مجال البيولوجيا إلى إدراك علاقة ما هو فيزيولوجي بما هو نفسي، إذ تابعوا "العمل الذي بدأته الفلسفة التجريبية حينما جعلت من مهمتها تشريح الفكر البشري وبيان أصول الفكرة في العقل البشري، ودراسة أحوال النفس في علاقتها بشروطها الفيزيولوجية"[19]

بالرغم ممّا نظّرت له الاتجاهات العقلانية والاتجاهات التجريبية في تناولها لمشكلة المعرفة بالتمهيد لتأسيس العلوم الإنسانية، إلا أنّها في مجال تفسيرها للظواهر النفسية لم تخرج عن إطار التناول الفلسفي وحصرها في الذات العارفة بمفهومها الضيق ضمن نظرية المعرفة، بينما المقصود من الدراسة النفسية يتخذ صورة أوسع، لذا لم يكن من الممكن أن نتحدث عن علم نفس بمعنى علم مقارنة بعلمية وموضوعية النتائج المحققة في العلوم التجريبية. وعليه فلقد توالت المحاولات لتمهد الأرضية للتأسيس الفعلي لعلم النفس، كعلم مستقل بذاته عن الفلسفة.

وهذا ما أثار جدلا واسعا بين من يدافع ومن يعارض ذلك، وفي ضوء هذا الجدل القائم خاصة في العصر الحديث، نجد " أوغست كونت" Auguste Comte (1798م-1857م) من خلال كتابه (محاضرات في الفلسفة الوضعية) الذي يعارض فيه قيام علم النفس وانفصاله عن الفلسفة والعلوم الأخرى، بحجة أنه لا يملك إلا منهج الاستبطان في دراسة الظواهر النفسية باعتبار أن الدارس والمدروس واحد مما يوقع الدراسات في أخطاء، فإذا رجعنا إلى تصنيف "كونت" للعلوم لا نجده قد أدرج علم النفس ضمن هذا التصنيف بل " اقترح أن توكل مهمة البحث في الوقائع النفسية إلى علم الاجتماع والفيزيولوجيا"2، كون أنّ موضوعه منقسم بينهما، وحتى هذه المرحلة لم يتخلص علم النفس نسبيا من هيمنة التفسيرات الميتافزيقية لموضوعاته، لذا لا يمكن أن يدرس إلاّ ضمن علم وضعي وهو علم الاجتماع.

ونتيجة للتأثّر بالتطور العلمي الذي شهده العلم إبان القرن التاسع عشر وازدهار البحوث والدراسات في ميدان الفيزيولوجيا، انكبّ الكثير من العلماء على الاهتمام بدراسة الجهاز العصبي من خلال تطبيق المنهج التجريبي، ممّا أدّى إلى" الكشف عن كثير من الحقائق والمبادئ كالكشف عن الدورة الدموية وعن مناطق المخ

[18] وقيدي محمد، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، مرجع سابق ، ص89.

[19] المرجع نفسه، ص 91.

التي تهيمن على الحركة عند الإنسان والحيوان وعن سرعة التيار العصبي"20، وما إلى ذلك من الاكتشافات وإدراك علاقة ذلك بالمجال النفسي لماله من تأثير خاص على الجانب الفيزيولوجي، ولم يكن ليتحقق ذلك لولا التوجه نحو التجريب الذي أصبح مقياس لعلمية العلوم، كبديل عن منهج الاستبطان الذي أثبت مع الوقت عدم نجاعته وتعارض بحوثه مع الدقة والموضوعية التي توصلت إليها العلوم التجريبية.

ولم تبق الدراسات في مجال الإنسان فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى دراسة أنواع أخرى مثل دراسة الحيوان وسلوكه، وهذا ما كشفت عنه نظرية "داروين" Darwin (1809-1882) التي تناولت موضوعات جديدة في علم النفس من خلال كتابه (أصل الأنواع) الذي أكد فيه على " أثر الوراثة في الوصل بين الماضي البعيد للخليقة وبين حاضرها، كما أكدت أثر البيئة في تطور الكائنات الحية وبقاء الأنسب في معركة الحياة"[21]

إن هذه النظرية أثارت مشكلات جديدة في علم النفس وأمدته بمفاهيم جديدة كمبدأ "البقاء للأصلح والأقوى" "الذي يسري على جميع الأنواع بما فيها الإنسان، وتحدّد على أساسه – أجناسها وفصائلها ومستوياتها في النظام العضوي الشامل، لاسيما أن مركبات العضوية وسماتها تتطور بفضل قدرتها على التلاؤم، فقد حاول بعض علماء النفس، فيما بعد أن يدرسوا السلوك من وجهة نظر ارتقائية باعتباره أداة من أدوات الصراع من أجل البقاء وعاملا هاما من عوامل النشوء والتطور"[22]

إن مثل هذه الدراسات ألقت الضوء على جوانب عديدة متعلقة بمراحل النمو النفسي عند الفرد والنوع من خلال تأثير عامل الوراثة والبيئة والكشف عن جملة الفروقات الفردية بين السلالات المختلفة بتركيزها على دراسة السلوك بالدرجة الأولى، وهذا فيه إشارة إلى المنحنى الذي بدأت الدراسات النفسية تتبعه لتحقق ذلك التقارب بينها وبين العلوم الطبيعية ولاسيما الفيزيولوجيا، وقد نتج عن ذلك ظهور فروع جديدة في علم النفس، كعلم النفس الحيواني وعلم نفس الطفل " وأمثال هذه الموضوعات مما قرّب علم النفس من علم الحيوان وعلم الإنسان البدائي(الأنثروبولوجيا)، وقد وضع أول الأمر في هذه الدراسة تصميم اختبارات لقياس الأفراد، ثم ضمت إلى نوع التجارب التي تجري في العلم على أنها من جملة مناهج الباحث النفسي"[23]

لقد توالت الجهود في سبيل البحث عن مناهج جديدة خاصة بالدراسات السيكولوجية التي أصبحت تتدرج لكي تحقق استقلالها وانفصالها عن الفلسفة خلال القرن التاسع عشر اقتداء بمنهج العلوم الطبيعية و الاندراج ضمنها، إلا أنّ هذا لم يتحقق دفعة واحدة، حيث أنه لا يمكن أن ننكر أن علم النفس نشأ في أحضان

[20] الوافي عبد الرحمن، المختصر في مبادئ علم النفس، مرجع سابق، ص 12

[21] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22] عامود بدر الدين، علم النفس في القرن العشرين، مرجع سابق، ص59.

[23] زيعور علي، مذاهب علم النفس، مرجع سابق، ص 92.

الفلسفة وهي التي بلورت موضوعاته، وبذلك يمكن القول أن "الفلاسفة كان لهم اليد العليا في ذلك الحين، وأنهم عالجوا علم النفس على أنه قسم تابع لموضوعاتهم"[24] لكن تبقى هذه التراكمية المعرفية ذات قيمة وأهمية في إيصال علم النفس إلى مرحلة الرشد ليصبح أحد أهم العلوم الإنسانية والاجتماعية.

2. التأسيس لعلم النفس:

- **المرحلة العلمية: استقلالية علم النفس عن الفلسفة**

إن النظرة التي كانت سائدة عند فلاسفة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر كانت دائما تعتقد أن علم النفس هو علم الشعور، لذا كان المنهج المعتمد في الدراسة هو المنهج الاستبطاني، ونظرا لما خلفه من عيوب، اتجه العلماء إلى محاولة الاستفادة من وجود منهج علمي سابق وهو المنهج التجريبي المطبق في مجال العلوم الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية، لذا أصبحت هذه العلوم تعد نموذجا علميا تقتدي به كل العلوم التي تبحث عن الدقة والموضوعية في دراستها ولاسيما منها العلوم الإنسانية وبالأخص مجال علم النفس، وبالرغم مما أسهمت به الفلسفات الوضعية والتجريبية، بقيت الدراسات السيكولوجية، تخطو خطوات بطيئة نحو تحقيق استقلاليتها والاعتراف به كمجال معرفي مستقل.

وهذا ما تبلور في جهود علماء النفس التجريبيين الذين دافعوا عن هذا العلم حيث وابتداء من سنة 1890م "نجحوا في الحصول على امتيازات وأقسام لعلم النفس أنشأتها الجامعات، وكانوا ينشئون الصحف والجمعيات النفسية، ولعلهم لم يكونوا في حاجة إلى الحطّ من شأن الفلسفة في شيء، بل أن يعلنوا ببساطة أن علم النفس، وإن كان لا يزال علما حادثا- قد نما إلى درجة تسمح له بمبارحة حظيرة الأسرة على غرار العلوم الأكبر منه سنا، وإنما لزمه الانفصال لكي ينهض بمصطلحاته الخاصة"[25]

لقد كانت نهاية القرن التاسع عشر مرحلة هامة في إنشاء علم النفس من خلال سعي علماء النفس إلى ضرورة التفكير في إنشاء مخابر نفسية تشبه تلك الموجودة في الفيزياء والكيمياء وحتى البيولوجيا لتجاوز التأويلات والتفسيرات الميتافيزيقية التي كانت تفسر من خلالها الظواهر النفسية.

فكان تأسيس أول مخبر لعلم النفس التجريبي في سنة 1879 مع "فيلهلم فونت" Wilhelm Wundt(1832م-1920م) بعد تأليفه لكتاب (مبادئ علم النفس الفيزيولوجي) الذي نشره عام1874م، حيث أكد على أن " معظم

[24] ا زيعور علي، مذاهب علم النفس، مرجع سابق، ص 93.
[25] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الوظائف النفسية كالتفسير والتعلم والتدبر والنسيان والانفعال يمكن أن تدرس دراسة موضوعية أي دون الإشارة إلى الحالة الشعورية للشخص الذي تجري عليه التجربة "[26]

وهذا ما دفع بعلم النفس أن يتجه صوب تحقيق التقارب مع العلوم الطبيعية التجريبية، مما وسع دائرة البحوث في هذا المجال وذلك بالاهتمام بدراسة الظواهر الفيزيولوجية والفيزيائية ومن أبرز العلماء "إرنست فيبر" E.Weber(1795-1878) " الذي قاد عدة تجارب فيما كان يسمى بعلم النفس الفيزيائي وخاصة فيما يتعلق بعتبات السمع والرؤية واللمس"[27]

كما أصبحت دراسة الانفعالات والأحاسيس تخضع لآلات تسجيل التي تجسد النتائج في صورة مخططات بيانية سواء لنبضات القلب أو التنفس للتعرف على حقيقة الحالة النفسية، وتوالت المحاولات لتحقيق الاستقلال الفعلي لعلم النفس خاصة في نهاية القرن التاسع عشر والانتقال من المساعي الفردية من طرف بعض العلماء لتحقيق تلك الاستقلالية إلى أشكال أخرى من التنظيم الجماعي التي "ساعدت إلى حد بعيد في ولادة هذا العلم وتحديد مادته ومناهج البحث فيه وعلاقته بالعلوم الأخرى، وهذا ما يفسر ظهور أقسام مستقلة لعلم النفس في جامعات أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.. وكذا انعقاد عدد من المؤتمرات الدولية لعلم النفس، كان أولها المؤتمر الذي عقد في باريس عام 1889 بمبادرة من جمعية علماء النفس الفيزيولوجي لمدينة باريس"[28]

وتوالى عقد المؤتمرات التي ناقشت تطوير ميادين البحث في علم النفس، وهذا ما نتج عنه فروع عديدة كعلم النفس التكويني مع بياجيه Piaget وعلم النفس التطبيقي، إذ نجد أن بعض علماء النفس أمثال "ريبو" Ribot أكدوا على أن توطيد علاقة علم النفس بفيزيولوجيا الأعصاب وتوسيع مجالات البحث التجريبي يضمنان تقدم هذا العلم في القرن العشرين وفي هذا الصدد أصبح البعض يصنف علم النفس كعلم مستقل عن الفلسفة وإعطائه مكانة إلى جانب العلوم التجريبية الطبيعية حيث تحوّل هذا العلم من علم الشعور إلى علم السلوك، خاصة بعد التأسيس لعدة مخابر نفسية، اعتنت بدراسة الإنسان في مظهريه الداخلي والخارجي واعتبار أن السلوك هو معيار الدراسة الموضوعية والعلمية.

[26] الوافي عبد الرحمن، المختصر في مبادئ علم النفس، مرجع سابق، ص 13.

[27] عشوي مصطفى، (2003) مدخل إلى علم النفس المعاصر، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 14

[28] المرجع السابق، ص 101

بالرغم من هذا التحول الذي حققته الدراسات السيكولوجية إلا أن الجدل بقي بين العلماء والفلاسفة حول أي الحقلين أنسب لتبني علم النفس هل هي الفلسفة أم العلم، إذ نجد أن أصحاب الوضعية المنطقية يرون " أن علم النفس علم مستقل عن الفلسفة، وينتمي إلى دائرة العلوم التجريبية"[29]

كما نجد "رودولف كارناب" R .Carnap (1891-1970) يفسر اعتقاد البعض على وجود صلة بين علم النفس والفلسفة، إذْ يؤكد على أنّ "الحبل السري بين السيكولوجيا والفلسفة لم ينقطع إلا في زماننا، ولم يدرك كثير من الفلاسفة بصورة واضحة أن السيكولوجيا لم تعد جنينا، بل صارت جسما مستقلا وأن المسائل السيكولوجية يجب أن تترك للبحث التجريبي"[30]

إن مثل هذه الطروحات ساهمت في تسريع وتيرة التطور في مسار علم النفس والانخلاع عن الطرق الكلاسيكية في تناول القضايا النفسية التي كانت أساسا تعتمد على الخبرة الذاتية المنبثقة عن الشعور "إذ بعلم النفس الجديد يصر على أن تقوم حقائقه على ملاحظات مسجلة ومحددة، وقد أضيف إلى تجارب أخرى عن الذاكرة والتعلم أكثر دقة"[31]

ومن جملة المؤثرات الأخرى على ارتقاء علم النفس تتعلق خاصة بالبحوث والدراسات على مستوى علم الطب العقلي الذي بدأ يزدهر أثناء القرن التاسع عشر من خلال دراسة نماذج من سلوك الشواذ وحالات الجنون وأمراض العصاب، وهنا بدأ يظهر ذلك التحوّل في التفسير، الذي كان يرتكز أساسا على الاعتقاد بوجود أسباب خفية أنطولوجية وراء هذه الأمراض التي تمّ تناولها من منطلق الدراسة الوضعية بالأخذ في الحسبان تأثير كل من الجانب النفسي والجانب الجسمي.

وهذا ما أدى إلى انقسام "أطباء العقل إلى معسكرين: النفسيين والجسميين، هؤلاء يبحثون عن الأسباب في دائرة العقل، وأولئك يصغون نحوا من إصابة أو اضطراب في المخ وراء كل شذوذ في السلوك، وقد ظهر اضطراب المخ فعلا في بعض الحالات الشاذة، ولم يمكن إثباته في بعضها الآخر"[32]

[29] سيد عبد الباسط، (1990)، الوضعية المنطقية والتراث العربي، ط1، دار الفارابي، بيروت، ص 82.
[30] المرجع نفسه. ص83.
[31] زيعور علي، مذاهب علم النفس، مرجع سابق، ص91.
[32] المرجع نفسه، ص 92.

إن هذا النزوع نحو التجريب بالنظر إلى ما حققه من نتائج باهرة في مجال العلوم الطبيعية، أصبح هو الأساس الذي من خلاله تقيم موضوعية العلوم، وبأوان لحظة دخولها المرحلة الوضعية بمفهوم "أوغست كونت" بالتخلي عن كل ما هو لاهوتي وميتافيزيقي في التفسير، وهذا ما بدأ يتحقق في مجال علم النفس الذي قطع أشواطا طويلة لبلوغ المرحلة الوضعية، بالرغم من طبيعة موضوعه المعقد، لم يمنع سعي علماء النفس من تكثيف مجهوداتهم وتوسيع دائرة البحوث العلمية للارتقاء بعلم النفس إلى درجة العلوم التجريبية، وهذا ما تجسد في جهود بعض علماء النفس كالعالم الألماني " فخنر" Fechner الذي يرجع له الفضل في تأسيس علم النفس التجريبي من خلال كتاب أصدره سنة (1860م) وهو(علم النفس الفيزيائي)، كان لهذه المحاولات دفعا قويا باتجاه تحقيق علم النفس لمكاسب عديدة مكنته من "أن يخرج من التأملات التخمينية والنظريات الواهية إلى ميدان القياس والتجريب"[33]، وهذا يعتبر أساس من بين الأسس الإبستيمولوجية التي دفعت بعلم النفس إلى تحديد "موضوع ومنهج خاصين به"[34].

وهذا بدوره ترتب عليه ظهور مدارس معاصرة في علم النفس ومعظمها برز في الفترة الممتدة ما بين 1910م و1940م تناولت الظواهر النفسية من زوايا مختلفة فكرية وروحية، سلوكية، لاشعورية أو جشطالتية تكوينية معرفية، وفينومينولوجية وما إلى ذلك من التوجهات التي نتج عنها تخصصات وفروع عديدة في علم النفس سواء في علاقاتها فيما بينها أو في توسيع علاقاتها مع العلوم الإنسانية وحتى مع العلوم التجريبية في إطار العلاقات البينية.

وهذا ما أثرى موضوعات علم النفس كعلم قائم بذاته له مناهج بحث خاصة به، تتلاءم وخصوصية موضوعاته، فمفهوم التجريب في مجال السيكولوجيا لا يعني بالضرورة مطابقته لمفهوم التجريب في العلوم الطبيعية، إذْ أصبح التجريب له دلالات مختلفة حسب طبيعة موضوعات البحث العلمي، بالرغم من ذلك فقد استطاع علم النفس بعد قطائع إبستيمولوجية متوالية أن يحقّق نتائج جيدة ولو نسبياً في تفسير العديد من الظواهر النفسية المعقّدة، ولا يزال في علاقة مع الفلسفة في محاولة الاستعانة بها في فهم بعض جوانب الإنسان العميقة، وهذا لا يقلل من قيمة الدراسات السيكولوجية، باعتبار أنّ العلوم المختلفة أصبحت تستعين بالفلسفة لحلّ إشكالياتها من خلال حقل فلسفة العلوم والفلسفة التطبيقية.

[33] بن عيسى حنفي، (دون سنة)، محاضرات في علم النفس اللغوي، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 124.
[34] عشوي مصطفى، مدخل إلى علم النفس المعاصر، مرجع سابق، ص: 16.

خاتمة:

نصل إلى أنّ علم النفس كأحد أهمّ العلوم الإنسانية والاجتماعية مرّ بتحوّلات معرفية وقطائع إبستيمولوجية عديدة بالنظر إلى مستوى النضج المعرفي قياسا بقربه أو بعده من الفلسفة، إذْ الخوض في مسألة النفس هو بحث قديم ارتبط بمختلف الفلسفات ما قبل التأسيس الفعلي لهذا العلم من الفلسفة اليونانية إلى غاية العصر الحديث، وكان سؤال النفس أو الروح يتمركز حول الماهية والطبيعة والخلود وعلاقة ذلك بالجسد ضمن نظرية المعرفة، وإنْ تطور النقاش نسبيا مع المذاهب الفلسفية الحديثة كالعقلانية والتجريبية حول مصدر المعارف النفسية أهو الشعور أم الإحساس.

ويبقى هذا التراكم المعرفي في تاريخ الفلسفة له قيمته لإسهامه بشكل كبير في تهيئة الأرضية تمهيدا لتبلور علم خاص يُعنى بدراسة الظواهر النفسية، فلم تكن البحوث النفسية مستقلة بذاتها بل تعد جزءا من المعارف الفلسفية العامة، وهذا ما أضفى عليها نوعا ما الطابع الميتافيزيقي والتأمل الفلسفي الذي شكّل عائقاً إبستيمولوجيا أمام نشأة علم النفس في هذه المرحلة.

وكما هو معلوم أنّ العلوم الإنسانية حديثة النشأة، ارتبط ميلادها بالقرن التاسع عشر موحّدة في علم الاجتماع، وهو العصر الذي عرف تطوراً علميا هائلا ومراجعة شاملة لمفاهيم العلم، وفي هذا الإطار استطاع علم النفس تدريجياً تحقيق الانفصال عن الفلسفة وحتى عن علم الاجتماع، وهذا التأخّر في النشأة كان بسبب تعقيدات موضوعه، لكن بالرغم من ذلك فلقد تمكّن هذا العلم مع القرن العشرين أن يتموقع ضمن المنظومة العلمية المعاصرة بفضل توفر الشروط الإبستيمولوجية لتأسيس مجاله المعرفي الخاص به موضوعا ومنهجاً.

وبفضل سعي علماء النفس إلى تكثيف الجهود، وتوسيع دائرة البحوث العلمية السيكولوجية تمّ بروز اتجاهات ومدارس عدّة تناولت الظواهر النفسية في أبعادها المختلفة، وهذا ما دفع إلى حلّ الكثير من القضايا النفسية المستعصية – تربويا واجتماعيا وصحيا - ومعالجة الأمراض النفسية والعصبية، من خلال التفاعل مع كل العلوم بإقامة علاقات بينية سواء ضمن مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية أو مع العلوم التجريبية وحتى مع الفلسفة إذا اقتضت بعض القضايا ذلك-الجانب الروحي-، وما زال هذا العلم في تطور مستمر لما له من خصوصية بالعمل على تجاوز عوائقه الإبستيمولوجية تدريجياً لتحقيق نتائج موضوعية نسبياً في مقاربة بحوثه العلمية.

قائمة المراجع:

1. أندري لالاند، (2001)، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A-G، ط2، منشورات عويدات، بيروت.

2. الوافي عبد الرحمن، (2003)، المختصر في مبادئ علم النفس، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

3. إبراهيم مدكور، (1983)، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.

4. بن عيسى حنفي، (د س)، محاضرات في علم النفس اللغوي، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

5. زيعور علي، (1981)، مذاهب علم النفس، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

6. عامود بدر الدين، (2001)، علم النفس في القرن العشرين، ج1، د ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

7. سيد عبد الباسط، (1990)، الوضعية المنطقية والتراث العربي، ط1، دار الفارابي، بيروت.

8. عشوي مصطفى، (2003)، مدخل إلى علم النفس المعاصر، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

9. ملاّ عثمان حسين، (1982)، الدراسات النفسية عند المسلمين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

10. وقيدي محمد، (1998)، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، ط2، مطبعة فضالة، المغرب.